مأساة فلسطين

مصدر وحي والهام في الشعر الحديث

بقلم كامل السوافيري

كانت مأساة فلسطين التي وقعت قبل ستة عشر عاما مصدر وحي ونبع الهام في الشعر العربي الحديث وجد فيها الشعراء ارحب الميادين . واخصب المجالات فاستوحوا منها كل مظهر ، واستلهموا كل جانب . لقد أوجدت فلسطين قبل المأساة موضوعات جديدة تناولها الشعر مثل وعد بلفور الذي لا نكاد نجد شاعرا عربيا لم يثر عليه وعلى مبرمه . والهجرة اليهودية او بالاحرى الغزوة الصهيونية التي غزيت بها فلسطين وقد استوحاها معظم الشعراء . ولكن المأساة التي حدثت سنة ١٩٤٨ أوجدت موضوعات ، وأحدثت جوانب لم تكن موجودة في الشعر الحديث من قبل . فقرار التقسيم الظالم لاقى من الشعر السخط والغضب والثورة ، وهيئة الامم ووسيطها ومجلس امنها وضمائر أعضائها تعرضت لالسنة لهيب الشعر ، وضرام نيرانه لانها نأت عن الحق ، وجانبت العدل ، وانحازت الى الباطل .

واسرائيل ثار الشعر على مولدها ، وأماط اللثام عن اخلاق ابنائها ، وما جبلوا عليه من عبادة للمال ، وتنكر للقيم والمبادىء ، ونعى الشعر بالوحشية التي ظهرت من اليهود في قريتي دير ياسين وناصر الدين ، وكيف اتضح تعطشهم للدماء ، وفتكهم بالابرياء .

واللاجئون وبؤسهم وتشردهم في المهامه والقفار وخيامهم السود وحنينهم للوطن ، وأملهم في العودة — موضوعات شعرية جديدة أوجدتها المأساة . والشعراء الذين هزتهم المأساة ، وفجرت فيهم ينابيع الشعر ، وأذابوا عواطفهم في أهوالها عبروا بأساليب جديدة ، وابتكروا من ضروب الخيال صورا جديدة تتفق مع فداحة المأساة ، وضخامة فواجعها . ويصدق هذا على الشعراء من ابناء فلسطين والشعراء من ابناء الاقطار العربية والمهاجر الاميركية . وقد وضحت في كتابي « الشعر العربي الحديث في مأساة فلسطين » اثر المأساة في الشعر في الموضوعات والاساليب اي ما يشمل الافكار والالفاظ والعواطف والصور وما فيها من طرافة وجدة وأصالة وابداع . ولا ريب في ان تأثر ابناء فلسطين بالمأساة كان أقوى وأشد لانهم أبناؤها الذين احترقوا بنارها ، وتقلبوا على جمرها ، وتناثروا كالشظايا ، وتطايروا كالشرر ، ومن مظاهر هذه القوة ان المأساة خلقت منهم شواعر وشعراء صنعتهم فواجعها ، وانطقتهم أهوالها فاستلهموها في مئات القصائد الباكية وعشرات الدواوين المطبوعة وكلها من الشعر الملتزم البعيد عن الذاتية . فمن الشواعر دعد الكيالي التي اعتصرها الاسى حزنا على وطنها الضائع فبكته في قصائد كثيرة . ومن الشعراء معين بسيسو وهارون هاشم رشيد ومحمد العدناني ويوسف الخطيب ورجا سمرين وخليل زفطان وكلهم صنعته المأساة ، وفجرت في قلبه ينابيع الشعر ، ولبعضهم ديوانان وثلاثة واربعة . والى جانب ذلك حولت المأساة بعض شعراء فلسطين من التيار الرومانسي الحالم الى التيار القومي ، وبتعبير أدق حولت اتجاههم الشعري اليها . وبحسبنا ان نمثل بالشاعر ابي سلمى

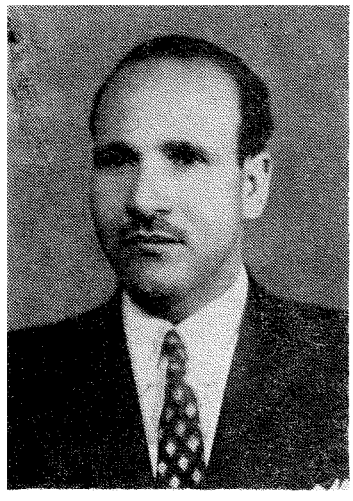

الذي كان قبل المأساة شاعرا وجدانيا يعشق الحسن ، ويعبد الجمال ، ويناجي القمر ، ويغازل الزهر . والشاعرة فدوى طوقان التي كانت قبل المأساة ايضا تشدو بأحلام قلبها ، وتهوم في روح الوجود ، وتحلق في سماء التأمل .

وفي الاقطار العربية كانت جوانب المأساة وأهوالها ومظاهرها مصدر الوحي والالهام لدى أعلام الشعراء وكواكبهم المتألقة في سماء الشعر ، ولا حاجة بنا الى سرد الاسماء . كما كانت هذه المظاهر مصدر الوحي والالهام في شعر الشعراء العرب في المهاجر الاميركية ولن نذكر الاسماء ايضا . وكنت أود ان اسوق الشواهد ، وأقدم الامثلة ولكني اكتفي بعرض صورتين الاولى رسمها خيال الشاعرة فدوى طوقان لاشلاء قومها ابناء فلسطين الذين بعثرتهم المأساة ومزقتهم شر ممزق :

خلال دخان علا واستدار ... رأيت الحمى خربة ماحله
على العتبات تدب هوام ... وتعبر قافلة قافلة

وبين الزوايا عناكب تحبو ... وتمعن في زحفها واغله
وأبصرت اشلاء قومي هنا ... وهناك على طرق السابله
عيون مفقأة بعثرت ... على الارض حباتها السائلة
وأيد مقطعة ووجوه ... غذا التراب ألوانها الحائله

ولست في مجال شرح هذه اللوحة الفنية الرائعة والثانية للشاعر العراقي ابراهيم الوائلي عن زمر اللاجئين :

زمر باتت على مسغبة ... تحصد الشوك وتقتات الغثاء
فيتيم أفلت اليتم به ... من وحوش ملأوا الليل عواء
وفتاة أسندت راحتها ... طفلة تبكي وأما نفساء
ورضيع كلما اشتد به ... ألم الجوع احتسى الدمع غذاء
لم يجد في الثدي اذ يلمسه ... بيد واهنة الا دماء

والصورة الكلية او اللوحة الفنية واضحة لا تحتاج لشرح . ونترك الشعر الغنائي وما ظهر منه من دواوين استوحت معظم قصائدها المأساة وأربى عددها على الخمسين الى الشعر القصصي لنجد ان المأساة أوجدت شعرا قصصيا أو ملاحم قصت أحداثها ، وسردت جوانبها الدامية وصورت مظاهر البؤس والوان الشقاء ، ومجدت البطولات . وبحسبنا ان نشير الى « المهزلة العربية » للشاعر محمود الحوت ، و « رسالة الشعر القومي » للشاعر محمود محمد صادق ، و « ارض الشهداء » للشاعر ابراهيم العريض ، و « النازحة » للشاعر محمد شمس الدين (١) .

وكما أوجدت المأساة الدامية شعرا غنائيا وقصصيا أوجدت ايضا شعرا مسرحيا ، وبحسبي أن أقدم مسرحية « شبح الاندلس » للشاعر برهان الدين العبوشي التي تقع في ثلاثة فصول وتتناول أحداث المأساة منذ زحف الجيوش العربية الى فلسطين في اليوم الخامس عشر من مايو سنة ١٩٤٨ الى توقيع اتفاقية الهدنة في سنة ١٩٤٩ .

واذا كانت المأساة مصدر وحي ونبع الهام في الفترة التي مضت فانها لا تزال بعد مرور ستة عشر عاما على المأساة ـ وستظل ـ مصدرا ثرا من مصادر الوحي ، ونبعا من منابع الالهام يستوحيها الشعراء من ابناء فلسطين وابناء الاقطار العربية على اعتبار انها مأساة عربية قومية عامة لا مأساة خاصة . مأساة العرب في القرن العشرين التي أيقظت الوعي ، ونبهت الفكر ، وكشفت عن الاخطاء وأحدثت في دنيا العرب أعظم انقلاب في السياسة والشؤون الحربية والفكر والادب .

مصر الجديدة

كامل السوافيري
ماجستير في الادب العربي

١ ـ درسنا كل ملحمة من هذه الملاحم دراسة مفصلة في كتابنا الذي أشرنا اليه .

آخر منشورات «دار الاداب»

*** الحضارة العربية الجديدة وحتمية الثورة** ق.ل
تأليف انور قصيباتي ٢٠٠

*** طريق الانسان الجديد بين الحرية والاشتراكية**
تأليف احمد حيدر ٢٠٠

*** مع الامام علي من خلال نهج البلاغة**
تأليف خليل الهنداوي ٢٥٠

*** اصابعنا التي تحترق (رواية)**
بقلم الدكتور سهيل ادريس ٤٠٠

*** مشكلة الحب**
بقلم الدكتور زكريا ابراهيم ٥٠٠

*** قضايا الشعر المعاصر**
بقلم نازك الملائكة ٤٥٠

*** ازمة الجنس في الرواية العربية**
بقلم غالي شكري ٤٥٠

*** الاشتراكية والادب**
بقلم الدكتور لويس عوض ٣٥٠

*** الشعوبية والقومية العربية**
بقلم عبد الهادي الفكيكي ١٥٠